

ومضات الذاكرة

عرض

نبيل فرج

كاتب وناقد

كما أنه ليس من السهل مناقشة كل ما جاء في هذه الفصول المتنوعة من تجارب ومواقف عديدة ، قدمها يوسف الشاروني ، تفيض بالرؤى والمعاني والمضامين ذات الأبعاد الشخصية والاجتماعية والعصرية، التي لفتت إليه الانتباه منذ صدرت له في «الكتاب الذهبي» (١٩٥٤) مجموعته القصصية الأولى «العشاق الخمسة»، في نفس السنة التي أصدر فيها سميّه في الاسم الأول، يوسف إدريس ، وفي نفس سلسلة «الكتاب الذهبي»، مجموعته الأولى اللافتة «أرخص ليالي».

وإذا كان يوسف إدريس (١٩٢٧ - ١٩٩١) قد أصبح في تاريخنا الثقافي علماً على منهج جديد في الكتابة القصصية، هو منهج الواقعية النقدية ، فإن يوسف الشاروني يمثل اتجاهها آخر كان يعد حينذاك اتجاهًا تجريبيًا أو طليعيًا ، يعرف بالتعبيرية، وهو اتجاه كان في المرحلة التي كتب فيها يوسف الشاروني أدبه في الأربعينيات سابقاً لأوانه بعشرين سنة. ولكنه غدا قوة سائدة في إنتاج السنوات الأخيرة من الستينيات، بعد نسكة ٦٧ ، على حين انحسر التيار الواقعي ، ولم يعد يكتب به أحد سوى قلة قليلة من الكتاب التقليديين، لا يلفتون أنظار

الشاروني ، يوسف .

ومضات الذاكرة/ يوسف الشاروني . - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣ . - ٤٤٦ ص ؛ ٢٤ سم .

في السنوات القليلة الماضية من حياته الأدبية التي يزيد عمرها عن نصف قرن ، كتب يوسف الشاروني صفحات من سيرته الذاتية الحافلة بالإبداع القصصي والدراسات الأدبية والنقدية والنثر الغنائي وتحقيق التراث والترجمة والرحلات ، وتركها مفتوحة لكي تتقبل صفحات أخرى من هذه السيرة ، قد تأتي بها الأيام القادمة، ثم أضاف إليها الحوارات التي عقدت معه في عمان وغيرها ، واعتمد على بعضها ، كما اعتمد على ومضات الذاكرة ، في تدوين هذه السيرة ، وضم إليها مجموعة من الرسائل التي تلقاها من أصدقائه الأدباء أو من الناشرين ، وردوده عليهم ، وعلى بعض ما نشر عنه في الصحف وغير ذلك ، وصدرت عن المجلس الأعلى للثقافة ، بمناسبة اقتراب عيد ميلاده الثمانين ، الذي وافق الرابع عشر من أكتوبر ٢٠٠٤ .

وليس من السهل على الناقد تلخيص كتاب من هذا النوع الذي يفتقد إلى الوحدة ، بسبب اختلاف طبيعة الموضوعات التي يتناولها في فصوله .

وهذه الحقيقة التي يذكرها يوسف الشاروني على إطلاقها عن فشل التغيير ونجاح التعبير، لا يعدو أن يكون فرضية، يحتاج إثباتها إلى مراجعة وممتون؛ لأن التعبير الفني انعكاس الواقع التاريخي، وعلى ضعف هذا الواقع، وفشله وتعطيل طاقته الخلاقة، لا يسفر تعبيراً فنياً ناجحاً، إلا في حالات استثنائية، يتجاوز فيها الفن شرطه التاريخي في الزمان والمكان، ولا يخلق ظاهرة أدبية عامة.

ويشير يوسف الشاروني في هذه السيرة إلى أنه اتصل بالحركة السيريالية التي ازدهرت في الأربعينيات في مجال الفنون التشكيلية، وهي الحركة الشائرة على التقاليد وعلى الواقع، التي قادها رمسيس يونان، وجورج حنين، وكامل التلمساني، وفؤاد كامل، وأنور كامل، وغيرهم، ووجد فيها يوسف الشاروني منابع أو أصولاً ثقافية تفيد إبداعه، كما وجد في اكتشافات علم النفس منابع وأصول لا تقل عنها ثراء.

كان العالم يشهد تفكك وتداعي الكثير من القناعات الفكرية والمعارف الأدبية والعلمية التي نهض على أسسها منذ القرن التاسع عشر، كما يشهد بداية تقدم لم يتوقف في وسائل الإعلام والاتصال، يتجه بتسارع نحو العولمة، لا تستطيع ملاحظته الصيغ والأنماط والنظم والمسارات القديمة المألوفة.

ولابد من إنشاء ثقافة جديدة من نوع جديد، وملامح جديدة، وهو ما حاول يوسف الشاروني أن يقدمه ببقيتين شديدين بسلامة طريقه، مستفيداً من حياته الهادئة، الخالية من التقلبات والتحديات،

والنقاد، وذلك لجملة أسباب موضوعية من جهة، وتتصل، من جهة مقابلة، بفن يوسف الشاروني وتقنياته الحدائية التي تقوم على تحطيم قواعد المنظور، وما يرتبط به من أساليب، يعتمد فيها - كما نجد في البناء السيمفوني - على طرح نغمة كلية أو تيمة أساسية تتشكل على السطح عبر نغمات أو تيمات متنوعة، فيها من التداخل والتناقض أكثر مما فيها من التآلف والانسجام، يتبدى فيها الفرد ضئيلاً مهزوماً خاوياً في الوسط الحضاري الذي يعيش فيه، ويعمل فيه هذا الوسط على تهيمشه، إن لم يستطع اختزاله إلى أدنى صفاته، أو لفظه كما تلفظ الزوائد والفضلات.

وتحت تأثير هذا الوسط الذي يرثى له الكاتب تنضواء رغبات الإنسان المطارد المطحون، إلى الحد الذي يصبح فيه كل همه ألا يفقد حياته، وأن يطمئن إلى سلامة خطوته التالية التي لا يجدي معها تحاشي الخطر الواقع لا محالة، مهما اتخذ من احتياط، أو توخى التدبير.

وإذا صح أن كل أدب يعكس فيما يعكس شخصية مبدعه ونظرته للحياة، فإننا نطالع في إنتاج يوسف الشاروني، المعبر عن هذه الحالة من الاغتراب، شيئاً من شخصيته ومن نفسه ومن نظراته للحياة، التي لم يخرج في سيرته الذاتية عنها قيد أنملة عن الآداب العامة.

وليس غريباً أن يرى يوسف الشاروني، ويعلن في سيرته، أن الأدب الذي كان يفترض أنه سيغير العالم إلى الأفضل، لم يغير شيئاً، رغم نجاحه في التعبير الفني عن العالم الذي ينشده.

المعاصرة يبدو في إنتاج يوسف الشارونى كالوهم ، ويغلب عليه اليأس .

ويذكر يوسف الشارونى فى حديثه عن مكتبته الخاصة التى تتكدس فيها الكتب وتزحف إلى كل غرف البيت أنها تضم قسماً كاملاً عن العشق والعشاق ، يضع فيه كل ما يجده من الطبعات الجديدة لكتب التراث التى تتناول هذا الموضوع .

ومن المعروف أن يوسف الشارونى ينتفع فى كتابته بمطالعة ما فى الصحف من أخبار وأحداث خاصة ما ينشر منها فى صفحة الحوادث ، وبما يشاهده ويلاحظه بنفسه من أحوال الناس وما يعاينه من الأماكن ، وبما يسمعه أيضاً من المحيطين به ، ثم يكتب ما يتجمع له كأنه بصدد كتابة تحقيق لوقائع زمنية ، يسجلها كما هى فى الحياة ، وليس بصدد كتابة فنية خالصة تتجدد بتجدد الزمن ، يتخلص فيها الكاتب من سيطرة الوعى الكامل ، كما يقول فى حديثه عن سيكولوجية الإبداع الفنى التى يعرض فيها لطريقته فى التأليف .

وكفنان يجيد أصول فنه ، يخرج يوسف الشارونى بهذه المادة العلمية من نطاقها الضيق إلى الآفاق الإنسانية الرحبة ، المتعددة المستويات والعلاقات ، بفضل حدسه وحسه وقدرته الفائقة على استثمارها ، وعلى كشف ما تنطوى عليه من حقائق وجماليات باطنية جمّة ، فيها من البديهة والتلميح والخيال ، قدر ما فيها من الوعى والبيان وأحكام البناء .

والمكرسة للإبداع وحده ، لا يشغله من الحياة إلا ما يجد فيه إثراء لأعماله الأدبية والنقدية ، بعيداً عن الحياة المتقلبة المتحدية التى قد لا تتيح الإبداع المنتظم حقاً ، ولكنها تشعذ الملكات .

ويوسف الشارونى ينظر إلى هذا الوسط المعاصر نظرة شاملة ، يخضع فيها لتكوينه الفنى كدّارس الفلسفة ، بمقدوره أن يرى بدرجة عالية من الذكاء والمنطق ترابط الوقائع المختلفة - على بعد المسافات ومرور الزمن - كما يرتبط الإنسان الفرد بالمجتمع ، ويرتبط الفرد والمجتمع بالعالم ، أو الخصوصية بالإنسانية .

أما أسلوب يوسف الشارونى فى مجموعته الثانية «رسالة إلى امرأة» (١٩٦٠) ، فيغلب عليها التقرير والمباشرة فى سرد الأحداث ، وضيق أو تركيز العبارة .

وتعد هذه الصفة فى السرد والتعبير التى لا تترك شاردة ولا واردة بعض خصائص قصصه التى تحفظ اسمه ليس كرائد تاريخى ، وإنما كمبدع أصيل لا تطوى أعماله ، ولا يغمره النسيان .

وعلى ضوء معاشته للتراث العربى ، يومئ يوسف الشارونى فى سيرته إلى أنه قدم فى كتابه «دراسات فى الحب» (كتاب الهلال ، ١٩٨٦) دراسة عن عاطفة الحب كما عبر عنها بأرق الألفاظ ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة» ، وابن الجوزى فى كتابه «ذم الهوى» ، وابن قيم الجوزية فى كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» .

وإذا كان هذا الحب القديم الذى نطالعه فى التراث يتسم بالصدق ، فإن الحب فى أيامنا

الذى كان يمكن أن يطلعنا على وجوه وأدوار هامة للكتاب الآخرين فى تاريخنا الثقافى المعاصر ، كان يوسف الشارونى شاهدا عليها ، على أقل تقدير ، إن لم يكن له دوره الفعال المؤثر فى صنعه .

ولعله من جهة أخرى اكتفى بما كتبه من دراسات عن هؤلاء الكتاب فى كتبه (أدباء ومفكرون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤) ، (مع القصة القصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥) ، (رحلتى مع الرواية دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦) ، (الروائيون الثلاثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠) ، (مع الأدباء ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٩) . أو أن طاقته على الكتابة عن هؤلاء الكتاب فى علاقته بهم استنفدت فى هذه الكتب ، فلم يجد دافعاً لمزيد من الكتابة عنهم بأية صورة من الصور .

ولا شك أن ممارسة يوسف الشارونى للإبداع تمنح دراساته الأدبية والنقدية - التى يزيد عددها من الكتب ما أصدر فى مجال الإبداع - خبرة حية بالكتابة ، قد لا يملكها الناقد المحترف ، صاحب الحصيلة النقدية المتخصصة .

و«ومضات الذاكرة» من تجليات هذه الخبرة .

وعلى الرغم من أن يوسف الشارونى بصفته الأدبية وبحكم وظيفته فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منذ تأسيسه ، وبأسفاره واتصالاته ، تعرف على معظم أدباء ومفكرى مصر والوطن العربى ، وتعامل معهم فى كثير من الأنشطة التى شارك فيها فى مسيرته الأدبية ، فقد تجنب الحديث الشخصى عن هذه المحطات ، كأنه لم يكن موجودا فى هذا الوسط الزاخر بأعلام الثقافة ، والمحرك لكل ألوان المعرفة .

ليس فى «ومضات الذاكرة» كلمة واحدة عن طه حسين ، وقد قابله مع محمود أمين العالم قبل ثورة ١٩٥٢ ، وعمل معه فى لجان المجلس واحتفالاته سنوات طويلة .

وليست هناك كلمة واحدة عن توفيق الحكيم ، أو يوسف السباعى ، أو عبد الرحمن الشرقاوى ، وغيرهم ، وقد تعامل معهم واختلط بهم .

ولا يرد اسم نجيب محفوظ أو يوسف إدريس فى السياق الذى فرضة كل منهما على تاريخنا الثقافى .

ولعله اكتفى بأن يورد فى آخر الكتاب قائمة بالوظائف التى شغلها ، والأنشطة الثقافية العديدة التى شارك فيها ، عن الحديث الحى المستفيض عنها فى كتابه ، بكل ما اتصل بها .. هذا الحديث